

الهروب إلى الصحراء في الشعر الجزائري الإصلاحية: مقارنة رمزية وثقافية

Escaping to the Desert in Algerian Reformist Poetry: A Symbolic and Cultural Approach

طارق ثابت

جامعة باتنة 1 الحاج لخضر، مخبر أبحاث في التراث الفكري والأدبي بالجزائر (الجزائر)،

tarek.tabet@univ-batna.dz: الإيميل المهني

النشر: 2026/06/30

القبول: 2026/06/17

الاستلام: 2026/04/01

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى استكشاف دلالات الهروب إلى الصحراء في الشعر الجزائري الإصلاحية، بوصفه ظاهرة فنية وفكرية تعبر عن موقف وجودي وثقافي من واقع المدينة الحديثة. فقد لجأ عدد من الشعراء الجزائريين، خاصة ذوي النزعة الدينية الإصلاحية، إلى استحضار الصحراء باعتبارها فضاءً رمزيًا يجسد قيم الصفاء والأصالة والانسجام، في مقابل تصوير المدينة بوصفها مجالاً للمادية والاغتراب وفقدان التوازن القيمي.

وينطلق البحث من فرضية مفادها أنّ هذا التوجّه لا يقتصر على كونه حنينًا مكانيًا إلى بيئة النشأة، بل يتجاوز ذلك ليشكل نسقًا ثقافيًا يعكس رؤية الشاعر للعالم، ويعبر عن توتر عميق بين منظومتين: منظومة تقليدية متجذّرة في الطبيعة، وأخرى حديثة ارتبطت بتحوّلات المدينة. كما يسعى إلى تحليل تمثّلات الصحراء في الخطاب الشعري، والكشف عن أبعادها الرمزية والجمالية داخل المخيال الأدبي. وبذلك، يخلص البحث إلى أنّ الصحراء في هذا السياق لا تُستدعى بوصفها فضاءً جغرافيًا فحسب، بل باعتبارها رمزًا حضاريًا وملاذًا روحيًا يعيد للشاعر توازنه، ويؤسّس لرؤية نقدية تجاه تحولات الواقع الحضري.

الكلمات المفتاحية: شعراء الإصلاح ؛ الصحراء ؛ المدينة ؛ التغيي بالطبيعة.

Abstract:

This study explores the symbolic and cultural dimensions of escaping to the desert in Algerian reformist poetry, considering it as both an artistic and intellectual expression of a critical toward modern urban life. A number of Algerian poets, particularly those influenced by religious reformist thought, evoke the desert as a symbolic space embodying purity, authenticity, and harmony, in contrast to the city, which is often depicted as a site of materialism, alienation, and value disintegration.

The study is based on the hypothesis that this tendency goes beyond mere spatial nostalgia and instead constitutes a cultural framework reflecting the poet's worldview. It reveals a deep tension between two opposing systems: a traditional one rooted in nature, and a modern one shaped by urban transformations.

Through analyzing poetic representations of the desert, the study uncovers its symbolic, aesthetic, and imaginative dimensions within literary discourse. It concludes that the desert is not merely a geographical setting, but rather a civilizational symbol and a spiritual refuge through which the poet seeks to restore balance and articulate a critical vision of urban reality.

Keywords: Reformist Poetry; Desert; City; Symbolism; Nature

للواقع العربي وتحولاته الداخلية والخارجية (رماني، المدينة في الشعر العربي-الجزائر نموذجاً- "1925-1962"، 2001، ص46)، ولكي يتمكن من الولوج إلى موضوعنا بسهولة ويسر؛ ينبغي أن نحدد أولاً مفهومي المدينة، وشعر المدينة.

1-1: مفهوم المدينة: سنقوم برصد بعض مفاهيم مصطلح المدينة؛ من خلال بعض المعاجم العربية، وفقاً لمعجم "لسان العرب"، فإن لفظ "مدينة" يُطلق على الحصن الذي يُشيد في أطراف الأرض، وكل بقعة أقيمت فيها تحصينات في أقصاها تسمى مدينة، وينسب إليها ساكنها فيقال "مديني". (ابن منظور، لسان العرب، ص455).

أما في معجم "مختار الصحاح"، فيرتبط أصل الكلمة بمعنى الإقامة والاستقرار في المكان، حيث يقال: "فلان مَدَّنَ تمديناً"، ويُستعمل اللفظ للإشارة إلى الأمصار والقرى، مثل "مدين" التي هي قرية قوم شعيب عليه السلام (الرازي، مختار الصحاح، 1979، ص219).

وكما نلاحظ فهذه المعاجم التي أوردنا تعريفاتها للمدينة أعطت المعنى اللغوي فقط؛ فالمدينة وسط حيوي مهم وحقيقة موهلة في القدم معاصرة لبدا الحضارة، وهي من الناحية الاجتماعية نسيج من العلاقات الاجتماعية والثقافية، والاقتصادية، والسياسية، والإدارية المتشابكة مع بعضها البعض؛ تتحدد ملامح المدينة من خلال الوظائف التي تؤديها داخل المجتمع، فهي ليست مجرد مكان للسكن، بل

1-مقدمات عامة: لا يمكن النظر إلى المدينة بوصفها مجرد تجمع عمراني، بل هي بنية حضارية مركبة نشأت نتيجة تفاعل الإنسان مع محيطه لتنظيم حياته وتأمين حاجاته المختلفة. فهي فضاء تشابك فيه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتتحدد ملامحه وفق أنماط العيش السائدة داخله.

ومن هذا المنظور، تغدو المدينة نظاماً دلاليًا مفتوحاً، لا يقتصر على بعدها المادي، بل يمتد ليشمل تمثالاتها في الوعي الإنساني، وما تحمله من رموز وإيهامات تتغير بتغير السياقات التاريخية. لا يمكن حصر "المدينة" في إطارها اللغوي كحصن أو مجمع سكاني فحسب، بل هي كينونة حضارية متطورة تشكل من شبكة معقدة من التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية. فهي تمثل الفضاء الذي صاغه الإنسان الحديث ليستجيب لمتطلبات العصر، خاصة بعد الثورات الصناعية التي حولت التجمعات السكانية إلى مراكز إدارية وتجارية كبرى تختلف جذرياً عن القرية في وظائفها وهيكلتها. (عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعر العربي المعاصر- دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، 2001، ص21).

لقد حظيت المدينة بوصفها كياناً مكانياً متغيراً بفعل الزمن وذات وظائف حيوية سابقة، باهتمام بالغ في الأدب المعاصر، حيث أضفى عليها الشعراء أبعاداً رمزية ودلالية عميقة. فهي تعد محوراً مركزياً في القصيدة العربية الحديثة، يعبر من خلالها الشاعر عن إدراكه الجمالي

المدينة لا يهتم بالمدن غير الواقعية كالمدن المتخيلة التي يتصنعها خيال الشاعر، و"شعرية المدينة هي امتداد لشعرية المكان هذا المكان الذي يُشكّله الخيال وبينه في اللغة على نحو يتجاوز حدود الواقع الفعلي، وليس للمكان الفني أبعاد هندسية، وحسية، إنما صورة جمالية تبدها الذات وتضفي عليها من ذاكرتها الحضارية-التاريخية أبعاداً لا نهائية"، (رماني، 2001 ص ن).

إن امتلاك الشاعر لتجربة حضارية متأصلة في فضاء المدن يمنحه قدرة فنية رفيعة على تحويل هذه التجربة إلى نص إبداعي ذي رؤية جمالية خاصة. فالشاعر بطبيعته يتجاوز الحدود الجغرافية الضيقة، ولا يمكن للقصيدة أن تكتفي بالمقاربات السطحية للمدينة، بل ينبغي أن تتشكل أجزاؤها لتشكل كلاً متكاملًا أو رمزًا يصلح ليكون مادة إبداعية خصبة (عبد المولى، "الشعر مكاناً"، 2005م)، وغالباً ما يتوقف هذا على شرطين، الأول طبيعة المكان الذي يختاره الشاعر ليدخل موضوعاً للكتابة؛ هل هو مكان كثير المعاني؟ هل له ذاكرة؟ هل له علاقة بعيد ثقافي؟ هل تحدد كرمز يتجاوز آنية المكان وراهنيتي؟ والشرط الثاني يتعلق بكيفية تناول الشاعر بأدواته الفنية للموضوع الذي ينشئ عبره تجربته الفنية، وفي تراثنا العربي الشعري لا يمكن أن نعثر على مادة شعرية يمكن تصنيفها ضمن شعر المدينة وفق ما عرفه ج. ه. جنسون، إلا لدى شعراء الحداثة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وهؤلاء - كما سوف نرى في هذا التمهيديهم - الذين شهدوا إشكالية التمدن في المراكز الحضارية الكبرى كالقاهرة، بغداد، دمشق، بيروت، واستفادوا من الحداثة الشعرية

إطار ينظم مختلف الأنشطة الإنسانية، من اقتصادية وإدارية وثقافية. كما تمثل مركزاً لتقاطع المصالح والعلاقات، وهو ما يجعلها فضاءً ديناميكياً دائم التحول، يتأثر بمسار التطور التاريخي والتقني. (لراوي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه، 2002، ص 4).

2-1: الفروق بين القرية والمدينة: لعلّه من الأنسب في بحثنا أن نقدم الفروق بين المدينة والقرية، فقد صُنّفت فروق بين القرى والمدن؛ فيقال قرية، وقرية كبيرة، وقرية كالمدينة، وقرية كبيرة شبيهة بالمدينة، أو قرية كالبلدة، وهذا "التصنيف كان وفق معايير حضرية محددة منها: وجود السلطة الإدارية، والقضائية، وكبر المساحة، وزيادة كثافة السكان ووجود الأسواق، وتوافر المرافق العامة كالحمامات، والمساجد الجامعة، وتوفر مصادر مياه الشرب، وما يرتبط بذلك من عوامل مساعدة على ازدهار حياة المدينة وأمنها؛ كالحصن، والأسوار والمناخ الجيد، ووفرة مصادر الغذاء" (لراوي، 2002، ص 8). ونحن لن نتناول في بحثنا سوى المدن التي يميزها التعريف السابق، بالإضافة إلى المدن المعروفة التي يُعنون الشاعر بها قصائده.

2: شعر المدينة: يتجاوز "شعر المدينة" الوصف الخارجي للمعالم المادية، ليركز على أثر التجربة المدنية في وجدان الشاعر وكيفية تفاعله مع ضغوطها. فالمدينة في النص الأدبي ليست مجرد أبعاد هندسية، بل هي "بنية جمالية" يعيد الخيال تشكيلها، مستحضراً أبعاداً تاريخية ورمزية تجعل من المكان الفني رؤية ذاتية تتخطى الواقع الملموس كما يعرفه ج. ه. جنسون؛ (رماني، 2001، ص 5). ومعنى هذا أن شعر

والصراعات السياسية" (لراوي، 2002، ص 16)، وهذا ما سوف نراه في العنصر الموالي؛ المدينة في الشعر العربي الحديث.

4- المدينة في الشعر العربي الحديث: شهدت صورة المدينة في الشعر العربي الحديث تحولاً لافتاً، إذ انتقلت من كونها إطاراً مكائناً محايداً إلى عنصر فاعل في تشكيل التجربة الشعرية. فقد أضحت المدينة، في كثير من النصوص، تجسيدا لحالات التوتر والاغتراب، وعلامة على التحولات العميقة التي مست حياة الإنسان العربي.

وبهذا المعنى، لم يعد الشاعر يكتفي بوصفها، بل يعيد بناءها داخل النص وفق رؤيته الخاصة، فتظهر أحيانا كفضاء خانق يهدد إنسانيته، وأحيانا أخرى كحلم مراوغ يستعصي على التحقق"، (عقاق، 2001، ص 121). وهنا يبرز جبران خليل جبران، الذي " تأخذ صورة العلاقة الجدلية بين المدينة والقرية في الأعمال الأدبية له حيزا أكثر اتساعا، وكثافة، غير أنه لا يفارق الرؤية الوجدانية العربية، في تحديد ملامح صورة المدينة، أو التعبير عن حالة الخروج منها إلى الطبيعة" (رماني، 2001، ص 50)، فأطلق صرخة مدوية احتجاجا على تغيير معالم الطبيعة وتآكلها، وتجاسرت هذه الصيحة متعالية بحسن امتداديّ خلقي لا نهائي، من أجل حمايتها من براثن المدينة؛ هذه المدينة التي يجب أن تهدم ويعاد بناؤها من جديد؛ لتلائم النفس البشرية الخيرة، ولتوفّر لها حريتها حرية الفكر، والعقيدة، والسياسة، وغيرها؛ فالمدينة عند جبران " وجه الإنسان الراحل عن جنسه؛ إذ أن كل ما في المدينة؛ المطامع، وكلما تمدّنت أدوات الحياة استوحش الإنسان... ومن هنا كانت المدينة باطلة وكل ما فيها باطل" (منصور،

الغربية في تجاربها مع المدينة المعاصرة، فامتلكوا الوعي الحدائي المديني، وأنجوا أشعارا مهمة في هذا المضمار" (رماني، 2001، ص 6).

3- موضوع المدينة : بفعل مستجدات الحضارة المعاصرة، انتقلت صورة المدينة في الشعر من كونها فضاء للسعادة والاستقرار إلى تعبير عن المعاناة الاجتماعية والتناحر السياسي والإحساس بالاغتراب. وبناءً على ذلك، صارت المدينة في القصيدة العربية الحديثة "عُنْصراً شعرياً جاذباً" بامتياز، حيث يعيد الشاعر تشكيلها وفق رؤياه الخاصة، مانحاً إياها دلالات جديدة متجاوزاً واقعها المادي (القهاويجي، الشاعر العربي والمدينة، موقع الشاعر الالكتروني

http://www.arabiancreativity.com/ibraheem_q2.htm) ، ومن هنا أصبحت المدينة عند أغلب الشعراء رمزا للألم والضيق، فغابت أبعادها الهندسية المادية، وتحولت إلى طاقة استعارية رمزية، تُمدّ الشاعر بالإلهام بل وتطهره من الواقع وإحباطاته، تتجاوز المعيشي واليومي إلى الدلالة التعددية في التأويلات الممكنة لها؛ لذلك قد تصبح عند أحدهم امرأة فاتنة يتغزل بها، أو تصبح غولا يهدد حياته ويمارس عليه كل أنواع القسوة والشاعر العربي عايش موضوع المدينة مبكرا مثله مثل الشاعر العربي؛ ذلك أن الشاعر العربي لديه أيضا " موقف من الكون كله وموضوعه الوحيد هو وضع الإنسان في هذا الوجود، وأداته الوحيدة هو الرؤيا التي تعيد صناعة هذا الوجود. وتجسد وعيه الجمالي للحياة. إضافة إلى أن المدن العربية لا تقل صخباً عن مثيلاتها الغربية، من ناحية السكان، الصناعة، والتطور العلمي والتعقيدات الإدارية،

الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، (1978، ص43).

ويسير على المنوال نفسه شعراء آخرون ينتمون إلى المدرسة الرومانسية، إذ تمثل الطبيعة في وجدانهم الملاذ الأكبر الذي يلوذون به هرباً من ضيق الحياة في المدن. وقد عبروا عن ذلك في دعواتهم الصريحة إلى نبذ الحضار والرجوع إلى البوادي، معتبرين أن "المدينة ليست إلا سجناً مقيداً، ومنفى، وعذاباً، وسجناً" (رماني، 2001، ص43)، ويعد الشاعر بدر شاكر السياب من الشعراء البارزين الذين استطاعوا التعبير باقتدار عن تجربة الصراع بين المدينة والريف، ففي أغلب أشعاره نجده يتغنى بقرينته كثيراً، على عكس المدينة التي غالباً ما كان يهجوها؛ لأنها تحقق مصالح الرأسمالية المتوحشة، وتحتقر الإنسان الكادح، وهو يخلص في معظم قصائده إلى أن المدينة مريضة، والمدينة المريضة هي خلاصة لموقف شاعر تربى في الريف، ونشأ بين عاداته، ومناخه وألفته الحكائية، ويوميته العادية. ويذكر عبد السلام الشاذلي أن "السياب الذي ترد في العديد من قصائده أسماء مواضع متصلة بالسياق الحالي؛ كوهان أو بورسعيد قد استطاع في أغان ساحرة بطابعها الشمولي أن يمنح القرية التي ولد فيها أبعاد الوطن بكامله بل وحتى أبعاد الأرض"، (الشاذلي، تجربة المدينة في الشعر العربي المعاصر، 2006، ص22)، أما مناف منصور فيبرر رفض السياب للمدينة وثورته عليها؛ لأجل الإنسان وقيمه؛ لأجل ألا يمحي أمام زحف المادة الجائرة (منصور، 1978، ص59)؛ وباختصار فخصوصية السياب هي التي جعلته يتلمس بصياغة فريدة ونادرة إرث المدينة بعزوفه عنها، أو شتمها تارةً، وبإثارة

أسئلة الهامش تارةً أخرى.

أما عبد الوهاب البياتي فيرفض المدينة محاولاً فضح زيفها، وخرابها ومدينته هي "عالم مشحون بالحزن، والسأم، والعذاب، والتشوه، متاه الوحشة والمنفى والسجن والجنون، موطن الرداءة، والرذيلة والانخداع النفسي والوجداني إنها آفة الحياة المستوردة من الغرب" (الشاذلي، 2006، ص52).

وموقف البياتي الرافض للمدينة؛ ليس لأنها مدينة فحسب؛ بل هي "قضية كرامة وظلم، قضية صمود في وجه أعداء الحياة، فليس الريف مطلوباً لذاته وليست المدينة مرفوضة لذاتها؛ بل يتحدد موقعهما بقدر ما تتحدد العلاقة من حضور الإنسان على الإطلاق" (منصور، 1978، ص76).

أما أحمد عبد المعطي حجازي فيمكن أن يُسعى بحق شاعر المدينة العربية فهو "يعد من أكبر شعراء العربية المعاصرين معاناة للجدل الدائم بين المدينة والقرية في المجتمع العربي المعاصر"، (الشاذلي، 2006، ص109)، وأحمد عبد المعطي حجازي حين يتحدث عن المدينة فإنه يتحدث عن الإنسان الضائع فيها، الإنسان الغريب والتائه؛ الذي وجوده فيها لا معنى له، ولهذا جعل منها قضية محورية في شعره؛ لأن رؤيته للمدينة بوجهها القاتم، نابعة من دهشة الإنسان القروي القادم من الريف؛ ف"قد انكسرت أماني الشاعر ولا يملك إلا الاعتراف بالفشل واجترار الصدمات النفسية؛ فالواقع الذي يعيشه غير الحلم الذي جاء من أجله" (لراوي، 2002، ص44).

أما صلاح عبد الصبور فيأتي اهتمامه بالمدينة من خلال تصويره للحياة المعاصرة؛ وبمختلف

مفقودة، عن حلم ضائع يبحث عنه وليست هذه المدينة المفقودة عند أدونيس غير المدينة الآتية؛ أي أنها بالتأكيد ابنة الأحلام، والمرايا؛ أي ابنة المستقبل كما يريده لا ابنة الذكريات أو الماضي كما ورثه مثلما يذكر مناف منصور، (منصور، 1978، ص 124).

5- شعراء الإصلاح الجزائريين والهروب إلى الطبيعة: سعى جيل من الشعراء الجزائريين، لا سيما ذوي التوجه الإصلاحي، إلى إيجاد مخرج من الاغتراب الذي فرضته مادية المدن، فوجدوا في "الصحراء" ملاذاً روحياً يعيد إليهم نقاءهم الأول. هذا الارتباط الوجداني بالبادية لم يكن مجرد حنين عابر، بل كان موقفاً نقدياً يرفض زيف الحياة المدنية المعاصرة وما تحمله من تناقضات قيمية، وهو ما نلمسه بوضوح في تجربة الشاعر "أحمد سحنون" الذي جعل من مديح الصحراء وسيلة لهجاء المدينة واختلالاتها (رماني، 2001، ص 166)، ففي التجربة الشعرية الجزائرية، يبرز اتجاه واضح نحو استعادة الصحراء بوصفها فضاءً بديلاً عن المدينة، خاصة لدى شعراء الإصلاح. ولم يكن هذا التوجّه مجرد اختيار جمالي، بل جاء تعبيراً عن موقف وجودي من واقع حضري مأزوم.

فالشاعر الذي خبر حياة الصحراء ظل يحملها في ذاكرته بوصفها أصلاً نقيّاً، لذلك عاد إليها في نصوصه رمزاً للانسجام والصفاء، في مقابل مدينة رآها مشحونة بالتناقضات؛ يتأسس الخطاب الشعري عند هؤلاء على مفارقة واضحة بين فضاءين متقابلين: فضاء أول يُستحضر بوصفه موطن الأصالّة والطمأنينة، وفضاء ثانٍ يُقدّم باعتباره مصدر قلق واضطراب، وهذا التقابل لا يُبنى على الوصف المباشر، بل يتشكل

أشكالها، فهو حين يكتب عنها لا يكرهها؛ بل يتألم من أجلها، فهي وإن كانت مبعث الألام والأحزان، فهي من جهة أخرى منبع إلهامه و" قد برهن التحامه بالمدينة في سياق بحثه عن المكان الضائع وراثته للزمن البائس "(رماني، 2001، ص 61).

أما السمة البارزة في موقف صلاح عبد الصبور من المدينة، فهي أن موقفه لا يقوم على الرفض وحده، ولا على القبول وحده، إنما يقوم على كليهما رفض وقبول؛ فهو " لم يبن في المدينة سحرها الذي كشفه بودلير مثلاً، إلا أن ما خالف به صلاح عبد الصبور أقرانه من الشعراء العرب المعاصرين موقفه الغني بالمداليل الحضارية المعبرة "(منصور، 1978، ص 157).

أما أدونيس فرؤيته للمدينة تكاد تكون متفردة بحيث أنه يزاوج بين القرية والمدينة ليجمعهما متكاملتين لا متناقضتين، ومواقفه منها " تتحدد بين الرفض رفض الواقع المر في مدينة هي صورة لبلده، وصورة للعالم العربي المتخلف وبين البحث عن المدينة المتولدة المتجددة"، (لراوي، ص 42).؛ فالمدينة عند أدونيس حالة أخرى من الصراع، صراع بين الماضي والحاضر، صراع بين الزمان والمكان و" لا يزال أدونيس يصنف المدينة وينظر إليها كمدينة النهايات أو المدينة المكتملة، والمنتهية التي تبقى في جوهرها هي هي: مدينة تسوية ومساومات؛ مدينة تعيش داخل سور يتسع قليلاً لكنه لا يزول "(الأتاسي، " الالتباس الدمشقي في شعر أدونيس وحياته"، 2003).

http://maaber.50megs.com/issue_novemb

er03/literature12.htm، فأدونيس حين

يتحدث عن المدينة؛ فإنه يتحدث عن مدينة

عبر شبكة من الصور والإحياءات التي تمنح الصحراء بعدًا مثاليًا، في حين تُحَمِّل المدينة دلالات سلبية مرتبطة بالتشظي وفقدان التوازن؛ يقول الشاعر: (سحنون، الديوان، 1980، ص31):

وإن سَكَنَ الناسُ المدائن إنني
لجأتُ إلى سَكَنِي بحضنيك يؤثر
وكيف أرى سكن المدائن بعدما
رأيت بها ما يستدم وينكر

أما محمد الأخضر السائحي؛ فيحن إلى الصحراء؛ مستذكرا صفاتها التي لا يجدها في المدن، مشدوها أمام عالمها الساحر الرحب، يقول: (السائحي، همسات وصرخات، 1981، ص89).

كُتِبَ أنت؟ أم سنا وضياء
ورمال؟ أم فتنة وُرواء
وسكون مخيم ووجوم
أم عناء مرجع وحذاء
بساط ممهد من حرير
أم هضاب على الثرى شماء
لست أدري أنت أرض دحاك
الله أم أنت يا رمال سماء

والسائحي بهذا "يتعامل مع المكان بالوعي المنطقي، لا بالانفعال المتخيل ومن ثم فهو لا يُصور بل يستنتج، يشاهد من الخارج ولا يعاني من الداخل" (رماني، 2001، ص164).

وهناك صنف من الشعراء الجزائريين، وجدوا في الطبيعة مهربا من وحشة المدن؛ فأقاموا علاقة خاصة بينها، وبينهم مثلما ذهب إليه صالح خرفي حيث يقول: (خرفي، أطلس المعجزات، 1968، ص27):

دعونا نسكن الغابات إننا
عشقنا أرضها حزنا وسهلا

مياه طاهرات لم تكدر
بكف معمر بالمكر جنلي
وشمس لم تحجبها قصور
تفيض ذكا، بها خبثا ونذلا

والشاعر صالح خرفي إنما يُعبر بهذا عن عشق لطبيعة يعتبرها "الملاذ الأخير لشاعر يبحث عن الصفاء، والطهارة، والضياء والأمان بعيدا عن حواضر مظلمة، دنسها الغزاة بالرجس والفساد" (رماني، 2001، ص170).

وهناك اتجاه آخر؛ متميز كل التمايز عما سبق؛ لكونه يهاجم المدينة بضراوة ودون مهادنة، مرتكزا على الخلفية السياسية دون غيرها؛ معتبرا المدينة بؤرة الفساد السياسي، والقهر، واللاعدل؛ فالمدن الجزائرية كانت كالجمل سلالته لشيء كانت مرتعا لجنود الاحتلال، حولها إلى سجن كبير وزنانات مظلمة، ولنتأمل ملوككتوبلغ الخيم ووالجيم خرفي وهو يرثي تبسة؛ للمسلطة مماليكي مخوطيلر المستعمر إلى نار ودماء، يقول: (خرفي، 1968 ص19) متحدئا عن مدينة تبسة:

رفعوك في ليل للكتكأ بدوياراً أنت أرض دحاك
إذ غادروك يا تبسة نارا
في كل قلب نابض قد أضرمو

ها؛ يستفز أوارها الأحرارا
وإذا كان كل ما ذكرناه عن مواقف الشعراء العرب والجزائريين من المدينة يتأرجح بين الرفض تارة، وبين التطلع إلى المدينة الرمز المثال تارة أخرى فإن هناك عدد من الشعراء العرب والمحدثين، ممن عاشقوا مدنها؛ بل وكتبوا فيها أجمل وأحسن قصائدهم.

والنتيجة التي يمكننا الانتهاء إليها؛ هي أن المدينة العربية، وبداية من القرنين العاشر والحادي عشر، إننا المد العلمي، وما صاحبه من تطور حضاري

الأمثل والرحم الأنقى، ومن هنا كان إجماع الشعراء العرب المحدثين على العودة إلى المكان الأم كما هي الحال مع بدر شاكر السياب أو إلى الزمان الأم كما هي الحال مع خليل حاوي، حيث البكارة والطفولة والبراءة الأولى طارحين في ذلك الحداثة بكل ثقلها، رابطين بينها وبين تجربتهم في المدينة"، (عقاق، 2001، ص138)، لكن هذا لم يمنع من وجود شعراء تغنوا بمدنهم وأفرطوا في عشقها.

6- خاتمة ونتائج: لقد سعى شعراء الجزائر من الأجيال السابقة إلى تحقيق نوع من التحرر من قبضة الحياة المدنية وماديتها المفرطة، وما صاحبها من شعور بالاغتراب، وذلك بالاحتماء بالطبيعة وهدوئها، أو بالتوجه إلى الفضاء الصحراوي. تبرز هذه الظاهرة بوضوح لدى أصحاب التوجه الديني الإصلاحي منهم؛ فالشاعر الذي قضى طفولته وشبابه في الصحراء واستنشق نقاءها، ثم اضطر للانتقال إلى المدينة، يبقى متشبهاً بذاكرة الصحراء. فهو يُظهر في شعره مله من تعقيدات المدينة ويكشف سلبياتها، بينما يدافع عن الصحراء ويصد الهجمات التي يشنها سكان المدن عليها؛ لأن فيها من الجمال ما يهر العين ويغلب اللب وختاماً يمكن القول إن لجوء الشاعر الجزائري إلى الطبيعة والقفار كان تعبيراً عن أزمة "الأنا" في مواجهة واقع مدني مشوه. لقد مثلت الصحراء في المخيال الإصلاحي رمزاً للحرية والصفاء في مقابل المدينة التي تحولت في نظرهم إلى ساحة للصراعات وفقدان الهوية. هذا التمرد الفني يعكس رغبة عميقة في استعادة القيم الإنسانية الأصيلة والعودة إلى "الزمن الأم" حيث البراءة والاتصال الروحي بعيداً عن ضجيج المادة

متسارع، لم يعد للإنسان العربي فيها من فرصة كي يتأمل ذاته أو يبحث عنها، كل ذلك مع ابتعاد هذه المدينة -في غالب الأحيان- بالنسبة للإنسان العربي عن البراء ونزوعها نحو التعقيد في أسلوب الحياة، وسقوط القيم فيها، وسيادة البؤس والحرمان، ولذا "لم تكن ثورة الشعراء على المدينة مطلقة ضمن نزوع وجداني رومانسي إلى الطبيعة، إنما لكونها مدينة عربية موبوءة بتاريخها الفجائعي وحداثتها المشوهة، فهي محتشد لمكافه متعددة متزامنة؛ اختلال نفسي، بؤس اجتماعي قهر سياسي، استلاب فكري، فهي إذن مقبرة الأحلام الجميلة، التي راودت العربي منذ عهد الإحياء في استعادة مدن الشرق الزاهرة". (رماني، 2001، ص70). كل هذا وغيره عمل على إحداث الصدام بين الشاعر والمدينة وحمله على الثورة عليها والتمرد على قيمها، مثلما هو الحال مع جبران خليل جبران، وإلياس أبو شبكة؛ اللذين يطالبان بتطهير مجتمع المدينة ولو بالنار، أو الفرار من جحيمه إلى عوالم خيالية، أو مثل الأخطل الصغير، المتغني بروعة الطبيعة وجمالها برؤية رومانسية حاملة، أو مثل محمد العيد آل خليفة، وأحمد سحنون اللذين يكثران في أشعارهما من التشكي من سقوط القيم في المدينة والابتذال الذي يسودها والدعوة إلى الصحراء والتغني بها؛ لسعة ألقها، ونقاء نسماها، فرارا من ضيق دروب المدينة، وفساد هوائها، أو مثلما يفعل صالح خرفي عبر مهاجمة المدينة بعنف نظرا لفسادها السياسي، وتسلب الاستعمار والظلم فيها لهذا كله "تمرد الشاعر المعاصر على المدينة لأنها فقدت اتصالها بالصفاء الروحي، ووثقت علاقتها بدنس المادة، فحنّ إلى نقاوة الريف، ومثلت له الطبيعة المكان

7- المصادر والمراجع :

أولا-المصادر:

- 1- ابن منظور، أبو الفضل، (دت)، لسان العرب، بيروت، دار صادر.
- 2- الرازي، (1979)، مختار الصحاح، بيروت، دار الكتاب العربي.
- 3- السائحي، محمد الاخضر، (1981)، همسات وصرخات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 4- خرفي، صالح، (1968)، أطلس المعجزات، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 5- سحنون، أحمد، (1980)، الديوان، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ثانيا:المراجع:

- 6- ابراهيم القهوايجي، (2006)، "الشاعر العربي والمدينة"، موقع الشاعر الالكتروني http://www.arabiancreativity.com/ibraheem_q2.htm

- 7- الشاذلي، عبد السلام، (2006)، تجربة المدينة في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب.
- 8- رمانى، إبراهيم، (2001)، المدينة في الشعر العربي-الجزائر نموذجاً- "1925-1962"، الجزائر، دار هومة.
- 9- عبد المولى، علاء الدين، (2005)، الشعر مكاناً، مجلة الموقف الأدبي، عدد 415، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صص 125-144.
- 10- عقاق، قادة، (2001)، دلالة المدينة في الخطاب الشعر العربي المعاصر-دراسة في اشكالية التلقي الجمالي للمكان-، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب والأدباء العرب.

- 11- لراوي، السعيد، (2002)، أطروحة دكتوراه المدينة في الشعر العربي المعاصر، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، الجزائر.
- 12 - منصور، مناف، (1978)، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.
- 13- محمد علي الأتاسي، (2003). " الالتهاس الدمشقي في شعر أدونيس وحياته "، مجلة معابر الالكترونية، http://maaber.50megs.com/issue_novemb03/literature12.htm